المحور2 :
المعنى والغاية من التاريخ

يعتبر سؤال المعنى هو السؤال المحوري في فلسفة التاريخ، لأن الحديث عن فلسفة للتاريخ، يعنى محاولة لايجاد نفسري عن معنى التاريخ غايته والقوانين المحركة له، وعليه فما هي أهم النماذج التفسيرية لسؤال المعنى والغاية من التاريخ ؟

1. التاريخ والعناية الإلهية

ان نظرية العناية الالهية مفادها أن التاريخ مسير من قبل عناية إلهية تحدد مسار التاريخ وتعطيه معنى وغاية. تظهر نظرية العناية الإلهية في التراث الديني بعامة والديانات الابراهيمية بخاصة ، حيث يتم اعطاء تصور ميتافيزيقي متكامل عن مسار التاريخ ، بدايته ونهايته والغاية منه. وفي هذا الصدد ظهرت بعض النظريات ذات الصيغة الفلسفية التي حاولت صياغة نظرية فلسفية عن العناية الإلهية التي تتحكم في التاريخ وكان من أبرزها محاولة القديس "أوغسطين الهيبوني".

يعتبر اوغسطين الهيبوني المعروف تاريخيا بالقديس أوغسطين أحد أهم الشخصيات الفكرية في تاريخ المسيحية ، فهو يعتبر أحد اهم آباء الكنيسة الكاثوليكية ، كما يعتبر أحد اهم المصادر الفكرية للفكر المسيحي ، وفلسفة القرون الوسطى بعامة. وقد دافع عن الكنيسة ومشروعية وجودها من خلال مشروع فكري صاغ من خلاله فلسفة في التاريخ اعدت لهذا الغرض ، حيث امتدت اهتماماته من التنظير في اللاهوت الديني الى مجال الفلسفة ، وصاغ اثرها نظرية العناية الإلهية التي ترى بأنه التاريخ معناه ومساره خاضع كلية لتدبير الخالق. وجاء في أبرز كتبه "مدينة الله"، فلسفته في التاريخ التي تنظر الى العالم والتاريخ نظرة مانوية قائمة على ثنائية الخير والشر ، حيث يرى أن التاريخ مسير بصراع جدلي بين الخير والشر ، الخير المتمثل في "مدينة الله" أي في اتباع الأوامر الالهية وفق ما يتضمنه الوحي والنصوص المقدسة ، ضدا عن الشر المتمثل في المدينة الدنيوية مدينة الفساد وأهواء الانسان.

دافع أوغسطين على فكرة أن الحياة الدنيا ليست الا مرحلة من مراحل التاريخ ، حيث أن الغاية الحقيقة هي الحياة الأخرى ، أو الفردوس الموعود ، وأن الحياة الدنيا في النهاية ما هي الا اختبار ملئه اللذات والشهوات الزائلة. كما رأى اوغسطين أن الخير أو الارادة الالهية ستنتصر في النهاية ، وأن العناية الالهية تسير التاريخ بطريقة محكمة وحكيمة باتجاه غاية معينة لا يعلم الانسان مغزاها في كثير من الأحيان ، لهذا يجب عليه الاعتماد على الوحي والنصوص المقدسة.

فالتاريخ بالنسبة له هو عبارة عن مسرح كبير تسيره الارادة الالهية وفق خطة وغاية. والانسان وسائر الموجودات خاضعون لحتمية الارادة الالهية تلك ، التي ستنتصر لا محالة حسبه. وبالنسبة له فلا شيء يحدث بالصدفة ، وما نراه على انه فوضى هو في الحقيقة جزء من الخطة العامة للتدبير الإلهي لمسار التاريخ.

2. الحتمية الطبيعية:

الحتمية (déterminisme) هي فكرة فلسفية ترى بأن كل حدث في الكون بما في ذلك أحوال الإنسان المادية والمعنوية خاضعة لبرمجة وتسلسل منطقي سببي محدد سلفا ضمن سلسلة غير منقطعة من الحوادث التي يؤدي بعضها إلى بعض وفق قوانين محددة، وبالتالي فلا وجود للصدفة أو لحوادث عشوائية. وترى الحتمية أنه لا مجال للإرادة أو الفعل الإنساني، وأن الارادة الحرة هي وهم يعتقده الانسان نتيجة جهله بحقيقة القوانين الحتمية الطبيعية.

الحتمية الطبيعية هي إذا نظرية ترى بأن التاريخ له معنى وغاية، مفادها أن هنالك حتميات طبيعية تحدد مسار التاريخ وحياة الانسان، وغالبا ما تكون هذه البرمجة الطبيعية مخفية ظاهريا عن الإنسان. فالانسان وفق هذا التصور خاضع ومنفعل للحتمية الطبيعية بدون ان يدري ذلك، مثله كمن يجف في تيارات مائية تفوق قوته، فيتحرك وفق مسارها وإرادتها بالرغم من ارادته قد تكون عكس ذلك. فالإنسان هكذا هو جزء منفعل من الطبيعة الفاعلة، حتى وان بدا أن هذا الانسان يتميز بالوعي والتفكير والذكاء الذي يسمح له بان يكون دوره موجبا في تحريك التاريخ، فانه يبقى مع ذلك دوره سالبا أمام حتميات الطبيعة، حيث أن له جانبا ماديا متمثلا في جسده وما يتبعه من حاجات بيولوجية تجعله مهما حاول أن يتعالى عن الطبيعة، سواء عبر السرديات الدينية أو العقلانية ، فانه يضل جزءا منفعلا لا يتجزأ من الكل الطبيعي، الذي تضل له الكلمة الأخيرة في تحديد مسار التاريخ وغايته.

قد تتداخل نظرية الحتمية الطبيعية مع نظرية الحتمية في العناية الالهية في عدة تفاصيل منها القول بالحتمية التاريخية، وأن التاريخ له معنى وغاية خارج الارادة الانسانية ، وأن الانسان هو غالبا يحتل مكانة الجمهور في مسرح تاريخي له غاية معنى مسبقي الحضور. كما أن الحتمية الطبيعية يمكن ان تكون ذاتها هي الارادة الالهية ، حيث تتجلى العناية الالهية في القوانين الطبيعية وهو ما أشار اليه **الفيلسوف باروخ سبينوزا** ، عن أن ارادة

الإله تتجلى في قوانين الطبيعة ، فحايث بين المتعالي والأرضي ، لتصبح الطبيعة والإله أمرا واحدا.

يمكن ذكر ثلاثة نظريات تجسد تصور "الحتمية الطبيعية":

نظرية التحليل النفسي (فرويد): يقسم فرويد بين الشعور واللاشعور ، ويرى بأن اللاشعور الذي يمثل الجزء الطبيعي وسلطة الحتمية الطبيعية على الانسان هو المحرك الفعلي للانسان. اما الشعور فهو الجانب الارادي من الانساني، وهو يمثل الجزء السطحي منه. كما ترى نظرية التحليل النفسي بأن هنالك صراع داخل الانسان الواحد، بين الأنا والأنا الأعلى، أي ان الصراع حادث بين "الوعي" والضمير الاخلاقي ضد الغرائز الطبيعية، أي صراع بين ارادة الانسان والحتمية الطبيعية، وهذا ما يمثل أساس التقدم التاريخي.

النظرية التطورية (داروين): حين يرى تشارلز داورين والتطوريون بعامة بأن التاريخ محكوم بقوانين طبيعية قوامها الصراع من أجل البقاء ، صراع تتدخل فيه عديد البرمجيات الطبيعية للأنواع والاجناس من أجل استمرار بقاءها وسيرورة التاريخ. فغاية التاريخ هكذا ليس الفرد بل النوع، فلا يهم مثلا أن يعيش فلان أم علان بقدر ما يهم أن يستمر النوع الانساني، بمعنى أن الانسان الفرد هنا يجد نفسه مجرد أداة لاستمرار النوع، ومجرد ممثل سلبي في مسرحية مبرمجة مسبقا وفق حتميات لا يستطيع الانسان الفرد معها قدرة ولا تغييرا.

النظرية المالتوسية (توماس مالتوس): بالنسبة لمالتوس فإن للطبيعة منطقها وقانونها الخاص الذي يتجاوز الارادة الانسانية، فالطبيعة تنتهي دائما بأن تفرض قانونها مهما أراد الانسان لذلك تغييرا. يرى مالتوس أن التقدم والتطور الانساني وان كان يعني تحسين ظروف الانسان ومعيشته، الا انه أيضا يساهم في زيادة عدد البشر والكثافة السكانية وهو ما يعني استهلاكا أكبر للموارد الطبيعية، فلا تستطيع الطبيعة تحمل ذلك الأمر، حيث يزيد السكان وفق "متتالية هندسية" تفوق بكثير معدلات زيادة الموارد الطبيعية (وفق متتالية حسابية)،

وعليه فإن "كارثة ديموغرافية" ستحدث في شكل كوارث طبيعية، أوبئة وحروب ...، لتعيد الطبيعة فرض منطقها على حساب الارادة الانسانية.

تظهر النظرية المالتوسية تشائما واضحا، حيث تجعل من الحتمية الطبيعية قانون التاريخ الذي لا يمكن تغييره.

3. الارادة الانسانية

على عكس طرح العناية الإلهية وطرح الحتمية الطبيعية فان طرح الارادة الانسانية هو طرح يؤمن بأهمية دور الانسان في مسرح التاريخ ، فليس الانسان مجرد منفعل في مسرح تديره الارادة الإلهية، وليس ايضا مجرد كائن تسيره برمجات وقوانين طبيعية، فالإنسان أولا وقبل كل شيء هو كائن عاقل ، يملك وعيا وفكرا وخيالا وذاكرة وضميرا، أي انه يملك القدرة على الاختيار، اختيار مساره الخاص الذي يريده ، بالتالي فعقل الانسان الذي يمثل أهم ميزاته قادر على تغيير وتحديد مسار التاريخ ، أي أن التاريخ يصبح تقدما وتطورا يقوده الانسان. ونجد بوادر هذه النظرية في الفلسفة اليونانية مع السفسطائيين الذين يرون بأن الانسان مقياس كل شيء. ثم نجدها في افكار عصر النهضة التي جعلت من الانسان مركزا للاحداث، بقطيعتها مع التفسيرات الدينية وانتقالها نحو الانسنة. كما تظهر بشك جلي في فلسفة الأنوار والحداثة الأوروبية (القرن 17 و18م) مع عدة مفكرين وفلاسفة أبرزهم كوندرسيه وفولتير، الذين صاغوا نظريات في فلسفة التاريخ تؤمن بقدرة الانسان العاقل على تحقيق التقدم التاريخي والتوصل الى الحقيقة والخير. فليس الانسان منفعلا في التاريخ بقدر ما أنه هو الفاعل الأساسي وفق نظرية التقدم الانساني.

تتميز نظرية الارادة الانسانية ب**التفاؤل التاريخي**، الذي يرى بقدرة الانسان على الفعل في التاريخ، وما يتبع ذلك من امكانية تحقيق الخلاص من خلال تطوير ذاته ومحيطه بما يساهم في تغيير مسار التاريخ، بما يخدم مصلحة الانسان وخيره.

تجعل كذلك نظرية الارادة الانسانية من الانسان مركز التاريخ وكل الاحداث، وبالتالي فكل الاحداث تدور حول الانسان ومن خلاله. فلا وجود للتاريخ الا بوجود الانسان. ومنه يمكن القول أن غاية التاريخ ومعناه انساني بامتياز وفق هذه النظرية.

4. التاريخ العبثي

يقصد بمفهوم "التاريخ العبثي" ان ينظر للتاريخ على انه لا يحتكم لقوانين خاصة تحدد سيره، فالتاريخ هنا لا تحكمه قوانين معينة. ذلك ان البحث عن معنى وغاية من التاريخ يتطلب أولا القول بوجود ومعنى وغاية ومسار لهذا التاريخ. وهنا يطرح السؤال هل فعلا يوجد معنى وغاية من التاريخ ؟

يرى الفيلسوف الانجليزي ممثل الفلسفة الشكية "ديفيد هيوم" أن توالي وتكرار الظواهر طوال فترة زمنية طويلة لا يعني أنها قوانين مطلقة ، ولا يعني أنها دائمة الوجود ، فالأمر المألوف وجوده يقود غالبا الى التسليم بأنه يشكل قانونا مطلقا مصدره العقل أو القوى المتعالية، لكن الأمر ليس ذلك واقعا، فلا شيء يضمن تكرر تلك الظواهر في المستقبل القريب أو البعيد، فتغير الاسباب يؤدي ضرورة الى تغيير النتائج. نفس الأمر ينطبق على التاريخ بهذا المعنى فمسار التاريخ في الماضي والحاضر لا يضمن بالضرورة صياغة قوانين كلية تفسر معنى ومسار وغاية التاريخ.

تؤسس "أسطورة سيزيف" اليونانية الى مفهوم العبثية في الحياة، والعبثية هنا هي فلسفة تتلخص في أن مجهودات الإنسان لإدراك معنى الكون دائماً ما تنتهي بالفشل الحتمي (وهي لذلك عبثية) وذلك لأن هذا المعنى المنشود غير موجود أساساً، على الأقل فيما يتعلق بالانسان الفرد. وأبرز ممثلي فلسفة العبثية هو الفرنسي ألبير كامو. كما أن الفيلسوف الألماني شوبنهاور لديه عبارة شهيرة تلخص هذا الوضع حيث يرى ب"أن الوجود الانساني لا بد أن يكون نوعا من الخطأ".

الإنسان وفقًا للعبثية يبحث منذ الأزل عن معنى للحياة، هذا البحث ينتهي بالوصول إلى نتيجتين هما: إما أن الحياة دون معنى، أو أنها تحتوي على هدف وضعته قوة عليا، وذلك عبر الإيمان بالله أو اتباع ديانة أو مفهوم مجرد آخر. أو انها خاضعة لنظام معين يتوصل اليه العقل بتجريداته ، وحين ينتفي الإيمان بالمقدس المتعالي وتتصدق مصداقية العقل

والعقلانية ، فان هذا الايمان بمعنى التاريخ يسقط أيضا ، فيصبح التاريخ ، معناه ، والغاية منه محكوما بنوع من العبث ، وهذا ما نجده مثلا في تفسيرات نشأة الكون في كثير من نظريات الفيزياء المعاصرة التي ترده لعامل الصدفة.